أُصولُ الهِدايَة

حقوق الطَّبع مَحفوظة للنَّاشر

الطَّبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

النَّاشر

دارُ الريَّان

الإمارات العَربيَّة المُتَّحدة

دبا - الفجيرة

ص.ب ١١٧٩٨

أُصولُ الهدايةِ

للعلّامة الشيخ
عبدالحميد بن باديس
المُتوفّى سنة (١٣٥٩ هـ) رحمه اللّهُ

ضبطَ نَصَّهُ وعَلَّقَ عَلَيه
عَليُّ بن حَسَنِ بنِ عَليٍّ بنِ عَبدِالحَميد
الحَلَبيُّ الأَثَريُّ

دارُ الريّان
الإمارات العَربيّة المُتّحدة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

تقديمُ

إنَّ الحَمدَ للَّه نَحمدُهُ ونَستَعينُهُ ونَستَغفرُهُ، ونَعوذُ باللَّهِ مِن شرورِ أنفُسنا، ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضلَّ لهُ، ومَن يُضلِل فلا هادِيَ لهُ.

وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللَّهُ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ.

وأشهَدُ أنَّ مُحمَّداً عبدُهُ وَرسولُهُ.

أمَّا بَعد:

فإنَّ التأمُّلَ الواعيَ لكتابِ اللَّهِ سُبحانهُ، والتَدَبُّرَ العَميقَ لآياتِهِ وكلِماتِهِ: يُعطي العَبدَ نَظَراً نافِذاً يُشرِقُ به قلبُهُ، وَيستَنيرُ به عقلُهُ ولُبُّهُ:

يَقولُ اللَّهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿أَفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أم عَلى قُلوبٍ أقفالُها﴾[1].

وَيَقولُ عَزَّ شأنُهُ: ﴿إنَّ هذا القُرآنَ يَهدي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤمنين﴾[2].

وَيقولُ تبارَكَ اسمُهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِن القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحمَةٌ للمُؤمنين﴾[3].

---

(١) مُحمَّد: ٢٤.

(٢) الإسراء: ٩.

(٣) الإسراء: ٨٢.

... وهكذا في آياتٍ كثيرةٍ تُظهِرُ عَظَمَةَ القُرآنِ، وتُبَيِّنُ فَضْلَ تَأمُّلِهِ وَتَدَبُّرِهِ .

وكَثيرونَ هم العُلَماءُ الذين قامُوا بتفسيرِ القُرآنِ كاملًا، أو بتفسيرِ أجزاءٍ منه ! لكنَّ القَليلَ مِن هذا الكَثيرِ مَن أتقَنَ بيانَهُ، أو أحسنَ إتقانَهُ .

ومِن هؤلاءِ القِلَّةِ القَليلَةِ الشيخُ العَلَّامَةُ الدَّاعيةُ المُجاهِدُ عبدالحميد بن باديس رحمه اللَّه تعالى .

وكتابُه هذا الذي نُقَدِّمُهُ للقُرَّاءِ الأفاضِلِ مُحَقَّقاً بَهِيّاً؛ يُفيدُ الطَّالبينَ، وَيَسُرُّ النَّاظِرين، وَيَنفَعُ الرَّاغبين : دليلٌ ساطعٌ على ذلك .

وأصلُ هذا الكتابِ الذي بينَ يَدَيك أخي القارىء، مقالاتٌ كَتَبها الشيخُ رحمه اللَّه في تَفسير ثمانَ عَشرةَ آيَةً مِن سورَة الإسراء « جَمعتُ أُصولَ الهدايةِ »[1]، وَقواعدَ « العقائد الحَقَّة، والحقائق العلميَّة، والأعمال المُستَقيمة، والكلماتِ الطَّيِّبة، والأخلاق الكريمة »[1].

والنَّاظِرُ في تَفسيرِهِ - رحمه اللَّه - لهذه الآيات يَرى قُدرَتَه التَّفسيريَّة العاليةَ، وَتَفنُّنَهُ العلميَّ الكبيرَ :

- فتَراهُ يُوردُ الأحاديثَ، وَيَتكلَّم في شيءٍ مِن أحكامِها المُتَعَلِّقةِ بها .
- وَتَراهُ يُورِدُ مباحثَ مِن علم النَّحوِ، أو البلاغَةِ .
- وَتراهُ يُورِدُ القراءاتِ القُرآنيَّةَ .
- وَتَراهُ يَتكلَّمُ على المسائل الفقهيَّة .
- وَتراهُ يَسترسلُ في دقائق رقائق القلوب، وتَفصيلاتِ خبايا النُّفوس .

... وغير ذلك مِن مباحثَ مُهمَّة، تَدفَعُ عَن طَلَّابي العلمِ كُلَّ غَمَّة .

---

(١) « الدُّرَر الغالية في آداب الدَّعوة والدَّاعية » (ص ٢٩) لابن باديس - بتَعليقي .

وَتبرُزُ قيمةُ هذا الكتابِ – وفي هذه الفَترَة الحَرِجَةِ مِن تاريخ الأُمَّة – في رَبط المُسلمين بكتابِ رَبِّهِم وسُنَّةِ نبيِّهِم ﷺ، بَدَلًا مِن الانشغالِ بِمسائلَ وَقضايا وأفكارٍ تُبعدهم عَن حَقيقةِ الصِّراعِ، وتَلْفِتُهُم عَن أصلِ مَنهجِهم .

ولَقَد قُمتُ بالتَّعليقِ على هذا الكتابِ، وتَبويبِهِ، وَضَبطِ نَصِّهِ، وَتَخريجِ أحاديثِهِ، وتَوضيحِ غَوامِضِهِ؛ مِمَّا يُقَرِّبُ – إن شاءَ اللَّهُ – فَوائدَهُ، وَيُدني للقُرَّاءِ مقاصِدَهُ .

فإن وُفِّقْتُ في ذلك؛ فهذا مِن تَمامِ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيَّ، وإن كان سِواهُ؛ فهذا مِن ضَعفي وتَقصيري .

واللَّهَ العَظيمَ أسألُ التَّوفيقَ والسَّدادَ، والهُدى والرَّشاد، إنَّهُ سَميعٌ مُجيبٌ .

كَتَبَهُ

أبو الحارث الأثريّ

عَفا اللَّهُ عنه

بِمَنِّه

الزَّرقاء – الأُردن : لثلاثة أيّامٍ

بَقينَ مِن شهرِ شوَّال (١٤١٢ هـ) .

تَرجَمَةُ المُؤلِّف

– اسمُه : عَبدالحَميد بن مُحمَّد المُصطَفى بن مَكِّي بن باديس .

– وُلِدَ سَنَةَ (١٣٠٨ هـ) المُوافق (١٨٨٩ م) في قُسَنْطينَة مِن البلادِ الجَزائريَّة .

– وَقَد كانَ الوَلَدَ البِكْرَ لوالدَيهِ .

– وأُسرَتُهُ أُسرَةٌ مَشهورَةٌ بالعلم، والثَّراءِ والجاهِ .

– حَفِظَ ابنُ باديس القُرآنَ على الشيخ مُحمَّد المَدَاسي، وأَتَمَّ حِفظَهُ في الثَّالثَةَ عشرةَ مِن عُمره .

– وَقَد وَجَّهَهُ أبوهُ (سنة ١٩٠٣ م) إلى طريقِ العلم والمَعرفةِ والثَّقافةِ، فاختارَ شيخاً له الشيخَ أحمد أبو حَمدان الوَنيسيّ، فَعَلَّمَهُ مبادىءَ العَربيَّةِ، والمَعارِفَ الإسلاميَّة .

– وَقَد سافَر ابنُ باديس سَنَةَ (١٩٠٨ م) إلى مَدينة تونُس ليَدرُسَ في جامع الزَّيتونة .

– وَقَد عُرِفَ في دراستِهِ بالجِدِّ والنَّشاطِ، وأَخَذَ عَن جماعةٍ مِن أكابر عُلماءِ الزَّيتونةِ؛ أمثال الشيخ مُحمَّد النَّخْلي القَيروَاني، والشيخ مُحمَّد الطَّاهر بن عاشور، والشيخ مُحمَّد الخَضِر حُسين – رحمهم اللَّهُ أجمَعين –

– وَقَد أصدَرَ عدَّة مَجلَّات وجرائد علميَّة إصلاحيَّة، مثل :

« المُنتَقِد »، و « الشِّهاب »، و غيرهما .

وَقد كانَ في كتاباتِه ومقالاتِه شديدَ الحَملةِ على كُلِّ مُخالفي الدِّين، بَدْءً مِن أهلِ البِدَع، وأصحابِ الطُّرُق، وانتهاءً بالمُستَعمِرِ الفَرَنسيِّ الكافر، مع أعوانِه وعُبَّادِهِ !

– حاوَلَت الحُكومَةُ الفَرَنسيَّةُ في الجزائر إغراءَه بالمَناصِب، وتَقريبَه منها؛ بتَوليَتِهِ بعضَ رئاسة الأُمور الدِّينيَّة[1]، فَرَفض رَفضاً باتّاً، مِمَّا تَسبَّب له بالإيذاءِ، والاضطهادِ، والابتِلاء .

– وتأسَّست في عَهدِهِ جمعيَّةُ العُلَماءِ الجزائريِّين سنة (١٩٣٢ م) وبِرئاستِه .

– وفي عهد رئاستِه لها أنشأت الجمعيَّةُ عَدداً كبيراً مِن المدارِس العلميَّة لتَعليم العُلوم الشرعيَّة، واللُّغة العَربيَّة .

– ترك مَجموعةً طيِّبةً مِن المُؤلفات، والرَّسائل، والمُقالات، جَمَعها الدكتور عَمَّار الطَّالبي في أربعة مُجلَّدات بِعنوان « آثار ابن باديس » .

– تُوفِّي رحمه اللَّه مساء الثُّلاثاء ٨ ربيع أوَّل سنة ١٣٥٩ هـ، وَتَحرَّكت بلدُته بأكملها لتشييع جنازتِهِ .

– رثاهُ عَدَدٌ مِن العُلماءِ والشعراء، مِن ذلك قولُ مَن قال فيه :

يا قَبرُ طِبتَ وطابَ فيك عَبيرُ
هَل أنتَ بالضَّيفِ العَزيزِ خبيرُ
هذا ابنُ باديسَ الإمامُ المُرتَضى
عبدُالحَميدِ إلى حِماكَ يَصيرُ

---

(١) تأمَّل موقفَه ومَوقف بَعض (الدُّعاة) المُعاصِرين !!

العالمُ الفَذُّ الذي لعلومِهِ
صُبَّت بأطرافِ البلادِ كبيرُ
بَعَثَ الجزائرَ بَعد طولِ سُباتها
فالشَّعبُ فيها بالحياةِ بَصيرُ

في أبياتٍ لَطيفَةٍ رائعةٍ[1].

---

(١) « الأعلام » (٣ / ٢٨٩) للزِّرِكْليِّ، و « أُنموذَج الأعمال الخَيريَّة » (٨٦) مُحمَّد مُنير الدِّمَشقي، و « السَّلَفيَّة في المُجتمعات المُعاصرة » (ص ١١٨) مُحمَّد فَتحي عُثمان، و « جمعيَّة العلماء المُسلمين الجزائريِّين » (ص ٥٨ – فما فَوق) مازنُ مُطبَّقاني .

وللدكتور مُحمَّد فَتحي عُثمان كتابٌ خاصٌّ في حياتِهِ، بعنوان : « عبدالحميد بن باديس رائد الحَرَكَة الإسلاميَّة في الجزائر المُعاصِرَة » .

مُقدّمة المؤلّف

[الحَمدُ للّه، والصّلاةُ والسّلامُ على رسولِ اللّه، وعلى آلِهِ وصَحبِه ومَن والاه .

أمّا بَعد :

فإنّه] قد أُوتي رسولُ اللّه ﷺ جوامعَ الكَلِم، واختُصر له الكلامُ اختصاراً[1] ؛ فالآيةُ من كتاب اللّه، والأثَرُ من حديثِ رسول اللّه، تَجدُ فيه مِن أصولِ الهداية، ودقيقِ العلم، ولطيفِ الإشارةِ في لفظٍ قليل، وكلامٍ بَيِّنٍ ما فيه الكفايةُ وفوقَ الكفايةِ لمن أُوتي العلمَ ومُنِحَ التّوفيقَ .

يقولُ اللّهُ تَعالى في كتابِهِ العَزيز :

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْموماً مَخْذولاً * وَقَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعْبُدوا إلاّ إيّاهُ وَبِالوالِدَيْنِ إحْساناً إمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَريماً * واخْفِضْ

(١) روى البخاري (٢٩٧٧)، ومُسلم (٥٢٣) عَن أبي هُرَيرة مَرفوعاً : « بُعِثْتُ بِجوامِعِ الكَلِم » .

وروى الدّارقطني في « سُنَنه » (٤ / ١٤٤) عَن ابن عبّاس مَرفوعاً : « أُعطيتُ جوامِعَ الكَلِم، واختُصِرَ لي الحديثُ اختِصاراً » .

وفي سَنده زَكريّا بن عَطيّة، وهو مُنكر الحَديث .

لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغيراً * رَبُّكُم أَعْلَمُ بِما نُفوسِكُم إِنْ تَكونوا صالِحينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلأَوَّابينَ غَفوراً * وَآتِ ذا القُربى حَقَّهُ والمِسكينَ وَابْنَ السَّبيلِ وَلا تُبَذِّر تَبْذيراً * إِنَّ المُبَذِّرينَ كانوا إِخوانَ الشَّياطينِ وَكانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُم ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرجوها فَقُل لَهُم قَوْلاً مَيْسوراً * وَلا تَجْعَل يَدَكَ مَغْلولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلوماً مَحْسوراً * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبيراً بَصيراً * وَلا تَقْتُلوا أَوْلادَكُم خَشيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُم وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُم كانَ خِطْئاً كَبيراً * ولا تَقْرَبوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَساءَ سَبيلاً * وَلا تَقْتُلوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلوماً فَقَد جَعَلنا لِوَلِيِّهِ سُلطاناً فَلا يُسْرِف في القَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصوراً * وَلا تَقْرَبوا مالَ اليَتيمِ إِلاّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفوا بِالعَهدِ إِنَّ العَهدَ كانَ مَسْؤولاً * وَأَوْفوا الكَيْلَ إِذا كِلْتُم وَزِنوا بِالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ ذلِكَ خَيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْويلاً * وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤولاً * وَلا تَمْشِ في الأَرضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبالَ طولاً * كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكروهاً * ذلِكَ مِمَّا أَوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكمَةِ وَلا تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلقى في جَهَنَّم مَلوماً مَدْحوراً ﴾ .

فهذه ثمانَ عَشرةَ آيةً من سورةِ الإسراء[1] قد أتت في إيجازٍ ووضوحٍ على أصولِ الهدايةِ الإسلاميَّة كُلِّها، وأحاطت بأسبابِ السَّعادةِ في الدَّارَين مِن جميعِ وُجوهِها .

(١) الآيات : ٢١ – ٣٩ .

وهي – فوقَ بلاغتِها التي عَرَفَ العربُ إعجازَها بسليقتِهم وأدركه علماءُ البيانِ بعلمهم ومِرانهم – قد جاءت مُعجزةً للخلقِ من أيِّ جنس كانوا، أو بأيِّ لُغةٍ نَطَقوا، بما جمعت من أصولِ الهداية التي تُدركها الفِطَرُ وَتُسَلِّمُها العقولُ .

وإنَّك لستَ واجِداً مثلَها في مِقدارِها وأضعافِ مِقدارِها من كلام الخَلقِ بِجَمعِ ما جَمَعت من هُدىً وبيانٍ .

وهذا أحدُ وجوهِ إعجازِ القُرآن العامَّةِ التي تقومُ بها حُجَّتُهُ على النَّاسِ أجمعين .

مَوقِعُ هذه الآياتِ موقعَ البيانِ والتَّفصيلِ للسَّعيِ المَشكور المتقدِّم في قولِهِ تعالى: ﴿ **فَأُولَئِكَ كَانَ سَعيُهُم مَشكوراً** ﴾ .

ووقوعُها بِلِصْقِ قولِهِ تعالى: ﴿ **وَلَلآخِرَةُ أَكبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكبَرُ تَفْضيلاً** ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ **التفاضُلَ في تلك الدَّرجاتِ مُرتبطٌ بالتفاضُلِ في السُّلوكِ والسَّعيِ المشكور**، المُستفادِ من هذه الآيات .

○ ○ ○ ○ ○

١ - التّوحيد العلمي والعملي

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذموماً مَخذولاً ﴾

التَّوحيدُ العلميُّ :

هذا هو أساسُ الدِّين كلِّه، وهو الأصلُ الذي لا تكون النَّجاة ولا تُقبل الأعمال إلاّ به، وما أرسل اللَّهُ رسولاً إلا داعياً إليه، ومُذكِّراً بحُججه .

وقد كانت أفضلَ كلمة قالها الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام هي كلمةُ « لا إله إلاّ اللّه »، وهي كلمته الصَّريحة فيه .

ولا تَكادُ سورةٌ من سُورِ القُرآن تَخلو من ذكره والأمر به والنَّهي عن ضدِّه .

وأنت ترى أنَّ هذه الآيات الجامعة قد جُعلت بين آيتين صَريحتين فيه .

المُفردات :

(**لا تَجعل**) : الجَعلُ : يكون عمليًّا؛ كَـ: جعلتُ الماء مع اللبن في إناء واحد.

ويكون اعتقاديًّا؛ كَـ: جعلت مع صديقي صديقاً آخر .

والجعلُ في الآية من هذا الثَّاني .

(**مَعَ اللَّهِ**) : المعيَّةُ هنا أيضاً هي مَعيَّةٌ اعتقاديَّةٌ .

(**إلهاً آخَرَ**) : الإله هو المَعبود **والعبادة نهاية الذلِّ والخضوع مع الشعور بالضَّعف والافتقار وإظهار الانقياد والامتثال ودوام التَّضرُّع والسُّؤال** .

(**فَتَقعُدَ**) : القعود ضدّ القيام، والعرب تُكَنِّي بالقيام عن الجدِّ في الأمر والعمل فيه، سواءٌ أكان العاملُ قائماً أو جالساً، فتقول: قام بحاجتي؛ إذا جَدَّ وعمل فيها، ولو كان لم يَمْشِ فيها خطوةً وإنَّما قضاها بكلمةٍ قالها، أو خطابٍ أرسله، وتُكَنِّي كذلك بالقُعودِ عن التَّرك للعَمَل وانحلالِ العَزيمة وبُطلان الهمَّة سواءٌ أكان الشخصُ واقفاً أو جالساً، فتقول: قعد زَيد عن نُصرَة قومه؛ إذا لم يَعمل في ذلك عملاً، ولم تكن له فيه همَّةٌ ولا عزيمةٌ، ولو كان قائماً يَمشي على رجليه .

فالقعودُ في الآية بمعنى المُكث، كنايةً عن بطلان العمل وخَيبة السَّعي وخَوَر القلب وفَراغ اليد من كلِّ خَير .

(**مَذْمُوماً**) : مَذكوراً بالقبيح مَوصوفاً به .

(**مَخْذُولاً**) : مَتروكاً بلا نَصير مع حاجتك إليه .

فنهى اللَّهُ الخلقَ كلهم عن أن يَعتقدوا معه شريكاً في ألوهيَّتهِ، فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنَّه الإلهُ وحدَه فيعبدوه وحدَه .

وبيَّن لهم أنَّهم إنِ اعتقدوا معه شريكاً وعبدوه معه فإنَّ عبادتَهم تكون باطلةً، وعملهم يكون مردوداً عليهم، وأنَّهم يكونون مذمومين من خالقهم، ومن كُلِّ عَقلٍ سليم من الخَلْق، يكونون مخذولين لا ناصرَ لهم:

فأمَّا اللَّه؛ فإنَّه يتركُهم وما عبدوا معه .

وأمَّا معبوداتُهم؛ فإنَّها لا تنفعُهم لأنَّها عاجزةٌ مملوكةٌ مثلهم، فما لهم – قطعاً – من نصير .

الخطابُ وسِرُّه :

والخطابُ وإن كان موجَّهاً للنَّبيّ ﷺ فإنَّه عامٌّ للمكلَّفين .

وسرُّ مثل هذا الخطاب تنبيهُ الخلق إلى أنَّ شرائعَ اللَّه وتكاليفَه عامَّةٌ للرَّسول والمرسل إليهم، وإن كان **هو قد عُصِمَ من المُخالفةِ فلا يبقى بعد ذلك وجهٌ لدعوى مُدَّعٍ خروجَ فردٍ من أفراد الأمَّة المكلَّفين عن دائرة التَّكليف** .

﴿ وَقَضى رَبُّكَ أَلاّ تَعبُدوا إلاّ إيَّاه ﴾ :

(**القضاء**) : يكونُ بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاءُ الكونيُّ التَّقديريُّ الذي لا يتخلَّف مُتَعَلَّقُهُ، فما قضاه اللَّه لا بدَّ من كونه .

ويكون القضاءُ بمعنى الأمر والحُكم، وهذا هو القضاءُ الشرعيُّ الذي يمتثله المُوَفَّقون، ويخالفه المخذولون، والذي في الآيةِ من هذا الثَّاني .

(**رَبُّكَ**): الرَّب هو الخالق المدبِّر المُنْعِم المتفضِّل .

(**أنْ**): مصدريَّة، والتَّقديرُ: بـ ﴿ ألاّ تعبدوا إلاّ إيَّاه ﴾ أي: بعدم عبادتكم سواه، بأن تكون عبادتُكم مَقصورةً عليه .

فالعبادةُ بجميع أنواعها لا تكون إلاّ له؛ فذلُّ القلبِ وخضوعُه، والشعورُ بالضَّعفِ والافتقارِ والطَّاعةِ والانقيادِ والتَّضرُّعِ والسُّؤالِ، هذه كلُّها لا تكون إلاّ للَّه .

تحذيرٌ :

فَمَن خضع قلبُه لِمَخْلوق على أنَّه يملك ضُرَّه أو نفعَه؛ فقد عبده .

ومن ألقى قيادَه بيد مخلوقٍ يَتَّبِعُهُ فيما يأمره وينهاه غيرَ ملتفتٍ إلى أنَّه من

عنده، أو من عند اللَّه؛ فقد عبده .

وَمَن توجَّه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السُّوء أو يَدفع عنه الضرَّ؛ فقد عبده .

وَمَن شعر بضعفهِ وافتقاره أمامَ مخلوقٍ على أنَّه يملك إعطاءه أو مَنْعَهُ؛ فقد عبده .

فاللَّهُ تعالى يُعَلِّمُ الخَلْقَ كلَّهم في هذه الآية بأنَّه أمر أمراً عامًّاً، وحَكَم حكماً جازماً بأنَّ العبادة لا تكون إلّا له .

وجيء باسم الرَّب في مقام الأمر بِقَصْرِ العبادة عليه تنبيهاً عل أنَّ الذي يستحقُّ العبادة هو من له الرُّبوبيَّة بالخلق والتَّدبير والمُلك والإنعام، وليس ذلك الإله، فلا يستحقُّ العبادةَ بأنواعها سواه، فهو تنبيهٌ بوحدانيَّة الرُّبوبيَّة التي مِن مقتضاها استحقاقُه وحده عبادةَ جميع مخلوقاته .

التَّوحيدُ العمليُّ :

وكما انتظمت هذه الجملةُ توحيدَ الرُّبوبيَّة، وتوحيدَ الألوهيَّة كذلك انتظمت مع الآية السَّابقة التَّوحيدَ العلميَّ والتَّوحيدَ العمليَّ :

فالأولى : نهيٌ عن أن تعتقد الألوهيَّة لسواه، وهو يتضمَّن النَّهي عن اعتقاد ربوبيَّة سواه، وهذا من باب العلم .

والثَّانية : أمرٌ بأن تكون عبادتُك مقصورةً عليه؛ لأنَّه هو ربُّك وحده، وهذا من باب العمل :

فَمَن وحَّد اللَّه جلَّ جلاله في ربوبيَّته وألوهيَّته علماً وعملاً ... فقد استكمل حظَّه من مقام هَذا الأساس العظيم .

وَمَن أخلَّ بشيء من ذلك كان ذلك نقصاً في دينه بقَدْرِ ما أخلَّ حتى

ينتهي الأمر إلى خَلْص[1] المُشركين .

نعوذ باللَّه من الشرك جليِّه وخفيِّه، إنَّه سميع عليم .

بيان واستدلال :

ألوان الذُّلّ :

يكون (الذُّلّ) بمعنى ضعف الحال، وهذا قد يكونُ لأهل التَّوحيد والإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ **ولَقَد نَصَرَكُم اللَّهُ بِبَدر وأنتُم أذِلَّة** ﴾[2] .

ويكون بمعنى اللِّين المَشُوب بالعطف، وهذا من صفات المؤمنين المَمْدوحة إذا وقعت في محلِّها كما في قوله : ﴿ **أذِلَّةٍ على المُؤمنينَ** ﴾[3] .

ويكون الذُّل بمعنى خُنوع القلب وخُضوعِه وانكساره للضَّعف والافتقار، وهذا هو الذي يكونُ من المؤمن الموحِّد لربِّه كما في حديث دُعاء القنوت : « وَنَخْنَعُ لَكَ »[4] ؛ أي : نذلُّ ونخضع لك .

وهذا الخُنوعُ هو أساسُ العبادة القلبيَّة، فلذلك لا يكون إلاّ للَّه .

وإنَّ من أسرار كلمة « **اللَّه أكبر** » – التي يأتي بها المؤمنُ مرَّاتٍ كثيرةً في صلواته وغيرها من أحواله –، حِفْظَ القلب من الخُنوع للخلق باستشعار عظمة

---

(١) أي : شِركٌ خالِصٌ، كَشِرك المُشركين .

(٢) آل عمران : ١٢٣ .

(٣) الفتح : ٢٩ .

(٤) هذا لفظٌ تَحَرَّفَ على المُصنِّف رحمه اللَّه، وصوابُه : « نَخْلَعُ »، أو : « نَخْضَعُ » .

فقد روى عبدُالرزَّاق (٤٩٦٩)، وابن أبي شيبَة (٢ / ٣١٤)، والبيهقي (٢ / ٢١٠ – ٢١١) ضمن قنوت عُمَر بن الخطَّاب : « اللَّهُمَّ إنَّا نَستَعينُكَ ونَستَغفِرُكَ وَنُؤمِنُ بِكَ، ونَخضَعُ لَكَ، ونَخلَعُ وَنَترُكُ مَن يَكفُرُك ... » .